

قال هذا رحمة من ربي

ما زلت أذكر يوماً في أسوان وقفته عند السد العالي ، بعد تحويل مياه النيل ، والعمل يسير فوق الأرض وتحت الماء . وفي الوجوه فرحة جادة . وفي النفوس إرادة واعية مؤمنة مستنيرة تعرف حساب الزمن ، وتسابقه إلى المستقبل ، وتعوض أعوام التخلف والضياح .

وعدت بعد الجولة ورؤية النيل الصديق ، وقد لان جبروته ، وقادته العقول والسواعد إلى المجرى الجديد ، فائضاً بنحر جديد . وأوجدت فيه بحيرة لم تكن موجودة من قبل . وجعلت من الباب الجنوبي لوطنتنا جبهة عمل ، غيرت معالم الحياة الطبيعية والبشرية هناك ، وأوجدت بيئة حضارية ومناراً من منارات التعاون بين الشعوب والحكومات ، على أساس من الإنشاء الإنساني والسير نحو حياة أفضل ، لا تقوم على استغلال فرد لفرد أو شعب لشعب .

١ - قصة سد في القرآن

وذكرت قصة سد جاءت في القرآن الكريم في خواتيم سورة الكهف [٨٣ - ٩٨] ولنقرأ معاً قوله تعالى :

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ . قُلْ : سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ

منه ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ

سَبَبًا • فَاتَّبَعَ سَبَبًا • حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا
تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ، قُلْنَا : يَاذَا
الْقَرْنَيْنِ ، إِمَّا أَنْ نُعَذِّبَكَ وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا •
قَالَ : أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ
عَذَابًا نُّكَرًا • وَأَمَا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ ،
وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا • ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا • حَتَّى إِذَا بَلَغَ
مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ
دُونِهَا سِتْرًا • كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا • ثُمَّ اتَّبَعَ
سَبَبًا • حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا
يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا • قَالُوا : يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَأْجُوجَ
وَمَأْجُوجَ مَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ، فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ
أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ؟ • قَالَ : مَا مَكْنَىٰ فِيهِ رَبِّي
خَيْرٌ ، فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا • آتُونِي
زُبَرَ الْحَدِيدِ • حَتَّى إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ، قَالَ :
انفُخُوا • حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا ، قَالَ : آتُونِي أَفْرَغْ عَلَيْهِ

قِطْرًا • فما اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ، وما اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا •
قال : هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي » .

٢ - منهج قرآني

ذكرت هذه الآيات بتمامها لعمق دلالتها على المنهج الذي أراده لنا ربنا لنستفيد به من قصص القرآن . وهو منهج نجد معاله الرئيسية في قوله تعالى :

« وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُوثِّتُ بِهِ
فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » .
[هود : ١٢٠] .

« لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان
حديثاً يُفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل
كل شيء وهدي ورحمة لقوم يؤمنون » [يوسف : ١١١] .

ففي القصص تفصيل هادف ، وإجمال هادف . والمحور الرئيسي
لقصص القرآن هو « العبرة » : وهذه صالحة للتطبيق ، ودافعة إلى العمل
الصالح دائماً ، وحافزة للنفس من الانحراف والهوى .

في هذه القصة من سورة الكهف إجمال لنواح كثيرة وتركيز على نواح أخرى . .

— ما اسم ذى القرنين ؟ في أى عصر عاش ؟ من أتباع أى نبي كان ؟ أين الموضع الذى شهد فيه غروب الشمس ؟ ومن القوم الذين تطلع عليهم الشمس دون ستر ؟ وأين المكان الذى عناه ربنا بقوله : « بين السدين » ؟ ومن يأجوج ومأجوج ؟ ومن القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً ؟

أسئلة لا نجد لها جواباً . وقد نجد من الباحثين عناية ببعضها . ولكنها لن تصل إلى مرتبة اليقين الذى لا يقبل نقضاً ، وإن دخل بعضهافى مجال التكلف الذى نهانا ربنا عنه .

هذا ، بينما هناك أماكن أخرى ، ذكرها ربنا بتحديد دقيق ، لا يمكن الاختلاف فيه ، مثل : البيت العتيق ، عرفات ، المشعر الحرام ، الصفا ، المروة ، مكة ، المدينة ، المسجد الأقصى ، . . وتتصل أكثر ما تتصل بالشعائر .

فإذا ما نظرنا إلى قصة ذى القرنين وجدنا تفصيلاً لمراحل بناء السد : الحوار الذى دار بين القائد والمستضعفين ، المنهج الذى دعاهم إليه ، خطوات العمل حتى تم البناء ، واختيار البناء بعد إتمامه ، رد الأمر كله إلى الله تعالى ومنه نستمد القوة والعون .

فحيث التركيز فى القصص القرآنى نجد العبرة . وحيث تلقى الآيات الكريمة ضوءها ينبغى أن ننظر . بل إنك لتستطيع أن تتجه إلى العبرة من دراسة مقدمات القصة وخواتيمها ، وهذه تقودك إلى المعالم الرئيسية التى ينبغى أن تتجه إليها العناية .

وبهذا المنهج ، وعلى هذا الضوء ، نحاول السير فى قصة ذى القرنين :

٣ - العمل

لقد نزلت سورة الكهف بعد أن تحدى كفار قريش ، رسول الله صلى الله عليه وسلم مستعينين في هذا بأحبار اليهود .

قال لهم أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإلا فرجل متقول تروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم . . ؟ (وهم أهل الكهف) وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ (وهو ذو القرنين) وسلوه عن الروح ، ما هي ؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي ، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم . . .

وتأخر الوحي عن رسول الله عندما قال لهم : « أخبركم بما سألتكم عنه غداً » ولم يستثن أي لم يرد المشيئة إلى الله تعالى . واشتد حزن الرسول وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم نزل الوحي الإلهي بعد خمسة عشر يوماً وفيه معاتبته الله لرسوله على حزنه ^(١) : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ ^(٢) نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ

إِنْ لَمْ يُوْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » [الكهف : ٦] .

ثم يحدد هدف الرسالات فيقول : « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ

زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » [الكهف : ٧] .

فالعمل الصالح هو أساس التفاضل بين الناس ، وهو المحال الأساسي لخدمة المجتمع وإعلاء شأنه .

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ١٠ : ٣٤٦ - ٣٤٧ .

(٢) باخع : مهلك .

ثم يؤكد الإيمان بالجزاء : « وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ^(١) » [الكهف : ٨] . ومرد الناس بعد دنياهم إلى الله تعالى .
الاختبار الأساسى للإنسان هو أن يعمل « أيهم أحسن عملاً » ،
وليس الاختبار مجرد سؤالك عما تعلم من قصص الأولين .
من أجل ذلك جاءت القصص فى القرآن مؤكدة قيماً عملية إيجابية
دافعة ، ولم تأت مجرد متعة ذهنية ، أو رداً على تحدى قريش واليهود .
وفى قصة ذى القرنين يبدو أمران واضحان من ذلك القائد : العدل
والعمل . ولك أن تقول صيانة المجتمع داخلياً بالعدل ، وإطلاق طاقات
العمل التى تحميه خارجياً من أعدائه ، وتوصل فيه قيماً جديدة من
الإيجابية والتنظيم .
ولنعد إلى القصة . . .

٤ - العدل

فع القوة التى توافرت لدى القرنين والقدرة والسرعة التى تتمثل جميعها
فى قوله تعالى : « وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا » كانت القوة عنده
فى خدمة العدل .
فهو يصل إلى أمة من الأمم ، لا يعنينا اسمها ولا مكانها ، بقدر ما يعنينا
أنه بعد أن ملك أمرها ، يستمع إلى الخطاب الإلهى اختباراً وابتلاء .
- « قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ مُعَذِّبٌ وَإِنَّمَا أَنْتَ تَتَّخِذُ
فِيهِمْ حُسْنًا » .

(١) جرزا : لانيات فيها .

فيذكر القائد منهجه في الحكم :

« أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ

عَذَابًا نُّكَرًا . وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ ،

وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا » .

فهو يربط بين العمل والجزاء ، بين السبب والنتيجة ، على أساس

من المنهج القرآني الخالد ، الذي نقرأه في أكثر من آية من كتاب الله :

« أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ *

أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ *

وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَىٰ * وَأَنَّ إِلَىٰ

رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ » [النجم : ٣٦ - ٤٢] .

« وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ

أُخْرَىٰ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ

تَخْتَلِفُونَ » [الأنعام : ١٦٤] .

فهو لا يؤخذ إلا ظالماً يستحق عذاب الله تعالى . وهو يكرم المؤمن

الذي يعمل صالحاً : فله عنده قول المعروف ويسر الأمر . وله عند الله

جزاء الحسنَى . الآية هنا تضع ميزان العدل الذي قامت به السموات

والأرض : « وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ *

وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ . وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ « [الرحمن: ٧-٩]
 والميزان أن يكون عقاب الفرد في الدنيا مما يستوجب عقابه في الآخرة ، وأن
 يكون إكرامه في الدنيا من أجل ما يستوجب إكرامه عند الله إيماناً وعملاً صالحاً .
 هذا هو الميزان بين البر والإثم ، والذي يوضحه قول الرسول عليه
 الصلاة والسلام :

- ١ - البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك (أى اضطرب)
 وكرهت أن يطلع عليه الناس .
- ٢ - البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب . والإثم ما لم
 تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب وإن أفطاك المفتون (١) .

٥ - عودة إلى العمل

وتنقلنا الآيات الكريمة بعد هذا إلى مشهد رائع من مشاهد الإنتاج . .
 يبلغ القائد مكاناً يسميه القرآن بين السدين . .
 هذا خاتق بين جبلين . والخاتق يصل بين موطنين : يسكن أولهما
 طغاة مفسدون يسميهم القرآن « يأجوج ومأجوج » ، ويسكن الثاني شعب
 مستضعف يصفه القرآن بقوله « قوماً لا يكادون يفقهون قولا » وتلور القصة
 وأطرافها ثلاثة :

- ١ - الطغاة : ولا يظهرون أمامنا في القصة ، ولا يشتركون فيها
 إلا من بعيد ، كخطر قائم يهدد سلامة الشعب الثاني .
- ٢ - المستضعفون الذين يتعرضون لإغارة الطغاة .

(١) السيوطي : الجامع الصغير ١ : ١٢٧ .

٣ - القائد بقوته المؤمنة التي وضعها في خدمة العدل .

ويدور الحوار بين القائد والشعب :

«إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ . فَهَلْ نَجْعَلُ

لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ؟»

العرض المقدم أن يجمع الشعب مالا ليقدمه إلى القائد ، ليتولى مسئولية السد : عليهم المال ، وعليه أن يوفر المواد والعمل .

ولكن القائد العادل لم يقبل هذا العرض . فليس مهمته مجرد إنشاء سد، وإن كان يحول دون انطغيان، ويحتمى وراءه المستضعفون . فرد عليهم :

«مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ، فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ

وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا .

ما مكنى فيه ربي خير مما تعرضونه على . . أريد منكم أن تشاركوني في بناء السد . أيديكم في يدي . واعدكم معي . وستبنى السد معاً متعاونين . وستبنون نفوسكم وأنتم ببؤس . وتجدون حقيقتكم وسط الجهد والعرق . لا أريد أن تبقى لكم أيد لا تحسن إلا تقديم المال . . والشكوى . . وانتظار الغير أن يحمل عنها مسئوليتها . أريد منكم أن تعملوا .

وما أكرم قوله «فأعينوني» كأنه المحتاج إلى العون، «بقوة» كأنه المحتاج إليها منهم ، مع أنهم المحتاجون إلى العون والسوة .

٦ - جمع المواد الأولية

هكذا نفخ فيهم القائد من روحه . أراهم أنهم قادرون على أن يعملوا . . وأن يعملوا بقوة . أعينوني : أمر تجدد فيه الأدب الرباني الذي تحسه في

قول الله تعالى داعياً إلى الإنفاق والبذل : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيراً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ . وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [البقرة : ٢٤٥] .

وفي سرعة ينتقل القائد من التوجيه العام إلى تحديد خطوط العمل .

آتُونِي « زُبُرَ الْحَدِيدِ »^(١) .

اذهبوا وابحثوا عنها في أرضكم . وجهوا ما بين أيديكم منها إلى الهدف الكبير ، إلى بناء السد الذي يحول بينكم وبين أعدائكم .

ولك أن تتصور كيف تحول المستضعفون إلى أرضهم ، يثيرونها بحثاً عما فيها من معادن . لك أن تتصور الأيدي التي كانت لا تحسن إلا دفع الخرج وتقديم المال ، تحاول أن تشتري به سلامتها ، إلى أيدي خشنةٍ طهرها العمل .

وهذه الجباه التي كانت تذلل أمام طغيان يأجوج ومأجوج ، انحنت على أرضها تخرج منها كنوزها من المعادن ، وتستخرج في الوقت نفسه ذاتها ، وتعثر على حقيقتها . . وتجلت فيها طاقات كبيرة كانت مقهورة تحت أطباق الذل . .

لقد أعانها القائد على أن تكتشف ذاتها عندما وجهها إلى العمل الدائب والاعتماد على النفس ، وعلى أساس من الإيمان والتعاون الواعي .

٧ - صهر وتنظيم وإرادة

ويتجمع الحديد ليسد بين الجبلين ويرتفع صوت القائد :
- « انفخوا » .

كلمة واحدة آمرة . لقد نفخ فيهم القائد من روحه فاندفعوا إلى العمل . . وها هم يتفخون الحديد الخامد فيلتهب كما التهب نفوسهم .
ثم يرتفع صوته الأمر مرة أخرى :

« آتُونِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا »

نحاساً مذاباً . . فكان هناك مجموعة أخرى كانت مختصة بأعداد النحاس المصهور ، في نفس الوقت الذي كانت فيه المجموعة الأولى مكلفة بإعداد الحديد ثم صهره ، حتى تجعله ناراً . وفي مرحلة معينة من مراحل العمل يصب القائد النحاس المصهور ، على الحديد الملهب .
هنا يصبح السد قطعة واحدة ، كما يصبح الشعب سبيكة واحدة ، عن طريق العمل الدائب ، وارتفاع معنوياته ، وعمله المنظم من أجل هدف كبير .
مع تماسك السد تماسك الشعب : هذا بالصهر وهذا بالعمل .

٨ - اختبار السد

ويعد أن يفرغ القائد والشعب من الإنشاء ينتقل إلى مرحلة ختامية هي اختبار العمل بعد إتمامه . ويأمرهم القائد : حاولوا أن تتسلقوه .
حاولوا أن تخترقوه . وتقرأ التمجيد الإلهي لهذه المحاولة :

« فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا »

وعندنا في اللغة العربية قاعدة أن زيادة المبنى في الكلمة يدل على

زيادة المعنى . ولا شك في أن محاولة صعود السد أيسر من محاولة اختراقه .
ولهذا قال الله في الأولى « فما استطاعوا » وفي الثانية « فما استطاعوا » .
بزيادة حرف التاء .

٩ - هذا رحمة من ربي

بعد هذا كله يرتفع صوت القائد :

« هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي » .

إيمان يرد الأمر فيه كله إلى الله تعالى . دون انتظار ثناء منهم إلا على
الله تعالى ، أن فتح أمامهم طريق العمل الجاد المشترك من أجل هدف كبير .
رحمة الله تمثلت في تحول أمة من شعار « فهل نجعل لك خرجاً »
إلى أمة شعارها « فأعينوني بقوة » .

أمة لا تشتري سلامها ولكن تصنع سلامها .

أمة لا تشتري السد ولكن تصنع السد .

وقيادة تنفخ في الأمة فاعلية وإيجابية ، تستطيع بها أن تتحول إلى
أرضها تبحث فيها عن كنوزها ، وتكتشف ذاتها من خلال العمل .

أمة تتحول إلى جيش عمل منظم عالم بنجبايا أرضه ، يقف أمام النار
الملتهبة ، ويرفع السد معتمداً على ربه ، متجمعاً وراء قيادته منظماً صفه ،
ومحددأ مراحل العمل وتوقيته الدقيق .

الاعتماد على النفس رحمة من ربي .

تنظيم العمل رحمة من ربي .

صهر الحديد والنحاس رحمة من ربي .

اختبار العمل بعد الانتهاء منه رحمة من ربي .

وهكذا تتمثل رحمة الله عملاً إيجابياً ، ومشروعات تقيمها الإرادة المؤمنة
الواعية ، والجموع المنظمة المنطلقة إلى حياة أفضل .